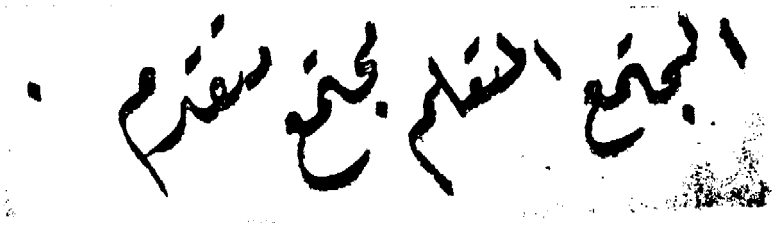

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

التعليم في الأندلس في القرن الخامس للهجرة

منجد مصطفى بهجت

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

تحتوي الحضارة العربية على الغرر الطريفة ، والنماذج الرفيعة ، التي تدل على الاصالة والابداع ،وما تزال جوانب كثيرة من تراثنا مجهولة بالنسبة للدارسين في عصرنا، والتعليمفي الاندلس احد هذه الجوانب . وسنحاول في هذه الدراسةالتعريف به وبيان دوره وبعده الحضاري بالوقوف عند ميادينه ومراحله وأساليبه ودور الشعر الاندلسي في الحث عليه ،خلال القرن الخامس الهجرى .

التقدم العلمي ثمرة التعليم :

يتفق اكثر الدارسين على ان الاندلس في القرن الخامس الهجرى — بلغت مستوى رفيعاً في تقدمها العلمي في جوانب المعرفة المتعددة إنتاج غزير ،ومؤلفات ضخمة اتعكس أثر هذا التقدم على دول اوربا ،فتركوا اثاراً ملموسة في حضارتها ، وكانت تلك المؤلفات المصدر الوحيد لجامعتها كما يقرر غوستاف لوبون: «ظلت كتب العرب تدرس في جامعات اوربا خمسة او ستة قرون »(١) وفي الوقت الذى لم يكن يوجد أمي في الاندلس، كان لايعرف القراءة والكتابة في أوربا معرفة أولية الا الطبقة العليا من القسس (٢).

لقد كان هذا التقدم الرائع ، ثمرة طبيعية لشيوع التعليم في مدن الاندلس كافة وكان بها تسع من أمهات المدن وثلاثة آلاف مدينة متوسطة ،وعشرات الالوف من القرى ،وكان على شواطيء نهر الوادى الكبير فقط ،إثنا عشرألف قرية ،ومع أن السّير في ذلك الزّمان لم يكن سريعاً فقد قال المؤرخون :« كان السائر في بلاد الاندلس لايسير مسافة يوم الا ويمر على ثلاث مدن ويقدر مجموع سكانها بثلاثين مليوناً وزيادة السكان بهذا القدر العجيب هي في حد ذاتها دليل على الدرجة العالية التي وصل القوم اليها في المدينة » (٣) .

وهذا الانتعاش الاقتصادي في الاندلس أعقبه إنحسار وتخلف بعد سقوطها بيد الاسبان ،إذ يرى المستشرق الانجليزي ماك كيب أن طليطلة قبل سقوطها

---

(١) حضارة العرب ٥٦٦ — ٥٦٧

(٢) الحياة العلمية في مدينة بلنسية الاسلامية ٢٦٧

(٣) مدينة العرب في الاندلس : ٤٢

عام ٤٧٨هـ كان يعيش فيها مئتا ألف نسمة وبعد مرور ثمانية قرون من استرجاع طليطلة نرى سكانها ثلاثين الفا يدبون دبيباً في شوارعها المهجورة الهامدة ويعيشون على كرم الزائرين (١) . وأوشك ان ينعدم الفقر للتقدم الثقافي والاقتصادي الذي أحرزته الاندلس حتى قال المقري : « واذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه فضلا عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد بالاندلس سائلاً الا أن يكون صاحب عذر (٢) »

ونستطيع أن نقف على آثار هذه الثقافة من خلال شعراء العصر، إذ تطالعنا ظاهرة لها أمثلة كثيرة تتمثل في وجود الشعراء العلماء، وهم الذين انعكست ثقافة العصر على اشعارهم كما يقرر الدكتور سعد شلبي (٣)، فيورد أمثلة تأثير العلوم اللسانية والدينية والثقافة بالتاريخ والفلك والفلسفة وعلم النفس.. ويؤكد الدكتور علي عبد العظيم ظهور آثار هذه الثقافة على ابن زيدون في دراسته عنه، ولهذا حُق للشاعر أن يقول:

ونَجذَني علم توالتْ فنونه كما يتوالى في النِّظام سخاب(٤)

عوامل ازدهار الثقافة :

ليس عسيراً على الدارس أن يستَجلي دَوافع ومحفِّزات التّعليم في بيئة الأندلس، فقد ساعد على ذلك الجوّ الفكري، والروح العلمية التي وسم بها العصر.. وحين تتحدث المستشرقة الألمانية« زيغريد هونكة» عن «شعب يذهب إلى المدرسة» في كتابها القيم « شمس العرب تسطع على الغرب » تقول: « وكان الدافع إلى كل هذا هو رَغبتهم الصّادقة في أنْ يكونوا مسلمين حقاً كما يجب أنْ يكون المسلم فلم يجبروهم على ذلك بل اندفعوا اليه عن رغبة وإيمان لأن من واجب كل مسلم أنْ يقرأ القرآن..» (٥).

---

(١) م.ن : ٢٢ – ٢٣

(٢) نفح الطيب ١/٢٢٠

(٣) البيئة الاندلسية واثرها في الشعر الاندلسي ٣٥٧

(٤) ديوان ابن زيدون ٢٤٥ ،ونجد : حنك والسخاب : العقد

(٥) شمس العرب تسطع على الغرب ٣٩٣

ويضاف إلى ذلك ، ماشهده المجتمع الأندلسي من تشجيع من قبل أمراء وملوك الطّوائف.. حيث كانوا يكافِئون العلماء والأدباء، ويشاركوهم هذا النشاط .

« إن ملوك الطوائف ماكانوا يتنافسون في الميدان السياسي فحسب، بل ايضاً في ميدان آخر هو حوزتهم كتاباً مشهورين ...» (١) ومن هؤلاء: المظفر بن الأفطس حاكم بطليوس (ت٤٦٠هـ) كان« كثير الأدب جمّ المعرفة محباً لاهل العلم ، وله كتاب التذكرة والمعروف باسمه « المظفري» في خمسين مجلداً . (٢)

وكان مجاهد العامري إماماً من أئمة القراءات، وعلى عهده نفقت سوق القراءة . وبلغت الرحلة العلمية أوجها في القرن الخامس للهجرة بالاندلس،وقد كانت أحد أوسع المنافذ التي انتقلت بوساطتها اصناف المعرفة .. وضروب العلم،ونستدل على حجم هذه الرحلات من كتب التراجم الاندلسية ويفرد المقرى بابا في كتابه نفح الطيب يستغرق الجزء الثاني (٣)، للراحلين من الاندلس إلى المشرق للتزود من العلوم،وفي رحلات بعضهم مايدعو إلى العجب والاعجاب للجهود المضنية التي كان يكابدها الراحل.. وهي صورة ثانية للرحلة في طلب الحديث،ومن امثلتها : رحلة ابي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت٤٤٤هـ) من اكبر علماء القراءات في عصره، بلغت تصانيفه مئة وعشرين مصنفاً،واستغرقت رحلته عشرين عاماً .

بدأ الداني رحلته في محرم سنة سبع وتسعين،ومكث بالقيروان اربعة أشهر ثم توجه إلى مصر،ومكث بها باقي العام والعام التالي،إلى حين خروج الناس إلى مكة ، يقرأ بها القرآن وكتب الحديث والفقه والقراءات وغير ذلك

---

(١) مجاهد العامري ٢١٥

(٢) مقدمة ابن خلدون ٤٣٧

(٣) يقع هذا الجزء في طبعة بيروت بتحقيق الدكتور احسان عباس في سبعمئة صفحة ، وهو يمثل الباب الخامس من الكتاب .

عن جماعة من المصريين والبغداديين والشاميين، فيتوجه إلى مكة ويحج وهناك يكتب عن عدد آخر ثم ينصرف إلى مصر فالمغرب، ويمكث بالقيروان شهراً، ويصل الاندلس أول الفتنة فيمكث في قرطبة إلى سنة ثلاث واربعمئة، ويخرج إلى سرقسطة ويقيم بها سبعةاعوام ويدخل بعدها دانية سنة تسع وسبعمئة، ومنها يمضي إلى ميورقة حيث يسكنها ثمانية اعوام ويعود إلى دانية ثانية سنة سبع عشرة واربعمئة . (١)

ولمكانة ابي عمرو الداني في عصره، رحلت اليه ابنة فايز القرطبي (ت٤٦٦هـ) سنة ٤٤٤هـ لأخذ القراءات عليه، فالفته مريضاً، ثم مالبث أن مات فسألت عنه أصحابه، فذكروا لها أبا داود، فلحقت به بعد وصوله إلى بلنسية، وقرأت عليه بالقراءات السبع وجودتها في آخر سنة ٤٤٤ هـ . (٢)

ميادين التعليم ومؤسساته :

مارس الأندلسيون التعليم في مؤسسات خاصّة عرفت به منها مؤسسات حرة واخرى حكومية وأبرز هذه المؤسسات التعليمية هي الكتاتيب والمساجد والمكتبات ودور العلماء . والمؤسسة العلمية الأولى التي تحتضن الطفل هي : المكتب والكتّاب وجمعها مكاتب وكتاتيب — يرسل اليها الصبيّان غالباً في سن الخامسة إلى السابعة — ويبقى فيها حتى الثانية عشرة او مادون ذلك (٣) وهذا النوع من التّعليم عرف بالمشرق، ودخل الاندلس منذ عهد مبكر، فقد وردت الإشارة إلى مؤدّب الصبيان في عهد عبدالرحمن الداخل (١٣٢ — ١٧٢) (٤)، وفي عهد الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦هـ) انشأ سبعة وعشرين مكتباً لاولاد الضعفاء والمساكين، منها ثلاثة حول المسجد الجامع، والباقي في ارباض قرطبة، وفي ذلك يقول ابن شخيص : (٥)

---

(١) معجم الادباء ١٢/١٢٦ — ١٢٨، وانظر غاية النهاية ١/٥٠٣

(٢) التكملة (مجريط) ٢/١٤٦

(٣) التعليم في رأي القابس ٤٢ — ٤٤

(٤) تاريخ افتتاح الاندلس ٦٣

(٥) البيان المغرب ٢/٢٤٠

وساحةِ المسجد الأعلى مكللةً مكاتباً للبتامى من نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك ياخير تاليها وراعيها

وهي صورة رائعة لعناية الحَكَم بالضعفاء والمساكين ، وتوفير مستلزمات التعليم لهم ومع مطلع القرن الخامس الهجري ، وفي الفتنة البربرية ، أصيب في وقعة «قنيتش» نيف على ستين من المؤدبين خاصة، أعريت سقائفهم في غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم .. » (١)

وقد تولّى التعليم ، المعلمون والمؤدبون ، يعلمون القرآن الكريم ، ويبدو أنّ الكتاتيب كانت تتخذ عادة قربَ المساجد وكان المؤدّب غالباً مايتولى تعليم أولاد الأمراء والحكّام ورجال الدولة والأغنياء ، والمؤدب — كما هو واضح — من المعنى اللغوي أعم واوسع دلالة من « المعلم » اذ يقتصر دور المعلم على تعليم القرآن بينما يمارس المؤدب التعليم والتربية ، جنباً إلى جنب ، والمؤدب يعاني في إقامة الصناعة في تلقين تلاميذه العوامل ومشاكلها وتقريب المعاني لهم في ذلك (٢) وثقافة المؤدب أوسع ، فلم يكن المؤدب — وهو العالم — يقتصر على التّأديب بل يناظر ويؤلف وربما كانت له حلقة في المسجد في ذات الوقت(٣). وقد كان ابو الحسن الزبيدي (ت ٣٧٥هـ) نفسه مؤدبا ونجد في تراجم عدد من العلماء أنهم مارسوا التّأديب، وفي عصر الطوائف أدب ابو بكر محمد بن أغلب بن أبي الدوس (ت٥١١هـ)ولدي المعتمد بن محمد بن عباد الراضي يزيد والمأمون الفتح (٤) ، وفي صقليه حفظ لنا ابن حوقل صورة فريدة للتعليم بالكتاب ، حيث يذكر بأن أحد هذه المكاتب كان يعلم فيه خمسة معلمين من بينهم رئيس هو مدير الكتاب (٥).

---

(١) الذخيرة ٣١/١/١
(٢) طبقات النحويين واللغويين ٣٣٦
(٣) الذخيرة ٢٠٦/١/١
(٤) م.ن ٢٠٩/١/١
(٥) العرب في صقلية ص٩٠

وكانت المساجد ودور المؤدبين واحياناً دور المؤدِّبين اماكن التأديب .. ولمكانتهم الأجتماعية وكثرتهم أوكلوا خطّة التأديب الى ابن ارقم المؤدّب ، كما ورد في بيتي بكر الأعمى :

قلب الزّمان فجاء بالمقلوب وتظاهرت ابيات كل عجيب
لاتيأسن من الوزارة بعدما نال ابن أرقم خطة التأديب (١)

لقد وقف ابو عامر بن شهيد (ت٤٢٦هـ) موقف الساخر من المعلمين في مواضع من رسائله التي ينقل ابن بسام مقاطع منها « وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على اجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة يحنون على اكباد غليظة وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون الى فطن حمئة واذهان صدئة لامنفذ لها في شعاع الرّقة ولامندب لها في انوار البيان » (٢) وفي موقف آخر يعجب من أبي القاسم ابن الافليلي لانه زاد على المعلمين في الصناعة ، وبزهم بوفور البضاعة (٣) والظاهر أن سبب تحامل ابن شهيد على المعلمين انهم لايقدرون أن يجعلوا مايحملون من المعرفة تصنيفاً ، ولا تغزر مادتهم أن ينشئوها تأليفاً ، وكذلك اتصافهم بالحسد والحنق لقصورهم عن أنْ يأتوا مايأتي به الشعراء المطبوعون. (٤) ولاشكّ إنّه انطباع خاص لايمثل ظاهرة عامة.

والمؤسسة الثانية التي كان يقصدها طالب العلم ، بعد المكاتب هي المسجد ، والذي احتضن نشاطات كثيرة ، وفي ذلك يقول العبدري : «إن افضل مواقع التدريس هي المسجد ، لان الجلوس للتدريس انما فائدته أن تظهر به سنة او تخمد به بدعة او يتعلم به حكم من احكام الله تعالى » . (٥)

لدينا امثلة كثيرة على ممارسة التعليم في المساجد الاندلس ، ولذلك اعتنى الحكام والامراء بتشييد المساجد لادراكهم اهميتها ودورها في التعليم فضلا

---

(١) جذوة المقتبس ١٨٠
(٢) الذخيرة ١/١/٢٠٥
(٣) م.ن ١/١/٢٠٦
(٤) م.ن ١/١/٢٠٩
(٥) المدخل ١/٨٥

عن العبادة ، وقد كان في قرطبة «جوهرة العالم» كما تنعتها المستشرقة الالمانية هيرسويناس — وحدها الف وستمئة مسجد (١) وذلك في ايام المنصور بن ابي عامر ، وروى ابن حوقل أن في بلرم (عاصمة صقلية) مايزيد على مئتي مسجد وقرر أنه لم ير مثل هذا العدد في بلد من البلدان الكبار ولا سمع به الا فيما يتذاكره اهل قرطبة ، ويسجل كذلك ظاهرة اخرى مكملة لظاهرة كثرة المساجد هي كثرة المعلمين (٢) . ولم يرتبط التعليم في المساجد بمرحلة زمنية معينة ، وانما مثل المراحل التالية لمرحلة الكتاتيب . فقد نهى ابن عبدون التُّجيبي عن تأديب الصبيان في المساجد «فانهم لايتحفظون من النجاسات بارجلهم ولا من ثيابهم فان كان ولا بد ففي السقائف » (٣)

ويرى الدكتور احمد شلبي ، أن انتقال الدراسة من المساجد إلى المدارس كان بسبب ماينبعث من هذه الحلقات من صوت الدرس ، وهو يلقي الدروس ، واصوات الطلاب ، فتحدث في المسجد شيئاً قليلا او كثيراً من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة . (٤) ولم نجد — تاريخياً — شكوى من المعلمين والطلاب بتأثير دراستهم على العبادات ، لان التعليم غالباً ماكان يمارس في غير أوقات الصلوات الخمس ، كان عبد الحق بن عبد الرحمن الازدي الاشبيلي ، اذا صلى الصبح في الجامع أقرأ الى وقت الضحى » (٥) ومما يستثنى من ذلك ابن عبدالله الشنتجاني (ت٤٣٦هـ) كانت تعقد له حلقة في جامع قرطبة في موعدين طويلين حفيلين كل يوم : موعد غدوة وموعد عشية .. (٦) ولكن التطور في العلوم — ولاسيما التطبيقية كان كفيلا بانتقال الدراسة من المساجد إلى المدارس .

وحين تحدث المقرى التلمساني عن حرص أهل الاندلس على العلوم والآداب واحتقارهم للجاهل واستقباحهم إياه أردف قوله : «ومع هذا فليس لاهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرؤون جميع العلوم بالمساجد ...(٧)

---

(١) نفح الطيب ٢/٤٤٩ ، وانظر مقدمة ديدان ابن زيدون ١٤

(٢) المكتبة الصقلية ٦–٧ ، وانظر العرب في صقلية ٨٧ (٣) ثلاث رسائل في اداب الحسبة والمحتسب ٢٤–٢٥

(٤) تاريخ التربية الاسلامية ٩٦ (٥) بغية الملتمس ٣٩١

(٥) الصلة ١/٢٧٣ والغدوة ما بين الفجر وطلوع الشمس ، والعشية من زوال الشمس إلى غروبها

(٦) نفخ الطيب ١/٢٢٠

ومن هنا يقرر محمد عبد الرحيم غنيمة ، بان الاندلس لم يتح لها أن تستفيد من هذا النوع من التعليم الا متأخراً جداً ، وكانت اول مدرسة بها في غرناطة سنة ٧٥٠هـ ، (١) لكن الدكتور علي عبد العظيم يذكر في حديثه عن عصر ابن زيدون — عصر الطوائف — انه كان بقرطبة وحدها ثمانون مدرسة عامة ، (٢) واغلب الظن أن مراده ليس المدرسة ، كما نفهمها اليوم ، وانما الاماكن التي كان يمارس فيها التعليم ، وذلك لعدم وجود نص يؤيد وجود المدارس في هذا العصر المبكر .

والمكتبة كانت المؤسسة العلمية الثالثة التي يقصدها الطلاب وحملة العلم وقد راجت المكتبات وشاعت بازدهار صناعة الورق ، واشتهرت شاطبة بصناعة الورق آنذاك، ولدينا أمثلة كثيرة على عناية أهل الاندلس بالمكتبات .. أستخدمت المكتبات وسيلة من وسائل نشر العلم — كما هي في عصرنا، وكانوا يعتمدون في نسخ الكتب على جهودهم الشخصية، وعلى هذا أصبحت المكتبات في العالم الأسلامي في تلك العصور تقوم بمهمة المعاهد العلمية في العصر الحديث بالإضافة الى ماتؤديه دور الكتب في الوقت الحاضر من خدمات . (٣)

وأصبح إقتناء المكتبات شارةً من شارات الرئاسة والشرف حتى عند الجهال غير العلماء — ويرويّ أن الاندلس كان بها ستون مكتبةً عامة أنشأها الخلفاء الامويون بل يقال أن غرناطة وحدها كانت تحوي سبعين مكتبة عامة (٤) في عهد الطوائف ، ولما انهارت الخلافة الأموية نهبت خزائن قرطبة فبيعت كتبها ، وتوزعت ، ومن تلك المكتبات ، مكتبة القاضي أبي المطرف ابن فطيس (ت٤٠٢هـ)، وكان أنشأ لها مبنى خاصاً ، صنع بفن يتيح رؤية الكتب مستريحةً في أماكنها ، عبر أبهاء أنيقة ، وعلى الجدران ، ورؤية السقف

---

(١) تاريخ الجامعات ١١٤

(٢) مقدمة ديدان ابن زيدون ١٦

(٣) تاريخ التربية الاسلامية ١١٩

(٤) مقدمة ديوان ابن زيدون ١٧ — ١٨

والسجاد والشّلت،وكلها خضراء اللون. وكان اللون المحبب إلى نبلاء قرطبة، وجمع فيها من الكتب في مختلف أنواع الفنون والعلوم.. وكان يعمل فيها باستمرار ستة من الوراقين ينسخون له دائماً مايريد، ولكي يجيدوا عملهم ، وحتى لايتسرعوا فيه ،كانوا يقبضون رواتبهم مشاهرةً على امتداد العام كله ، وكان يشرف عليها ويديرها ، ويعد فهارسها ،وينسخ الكتب النادرة ذات الاهمية الخاصة ابو عبد الله بن معالي الحضرمي، وفي نفس الوقت كان يعمل إماما لمسجد لأسرة ، وعندما يعرف أبو مطرف أن أحداً حصل على كتاب جديد ، لايهدأ له بال حتى يشتريه ، يدفع فيه الثمن أضعافاً مضاعفةً فاذا لم يستطع الحصول عليه وسط من يعينه على ذلك ، فاذا فشل في محاولية طلب أن يهدى اليه ، أو يسمح له بنسخة ، وكان لايعير كتاباً من أصوله ألبتة ، واذا ألحف عليه أحد بالسؤال أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ثم دفعه إلى المستعير ،وعندما قررت أسرته فيما بعد بيع كتبه ، أستمر البيع في مسجده عاماً كاملا وكانت حصيلته مابيع منها أربعين ألف دينار (١) .

وذكروا أن مجاهد العامري حاكم دانية(ت٤٣٦هـ) جمع من دفاتر العلوم خزائنجمة (٢) وأما المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس فجماعة للكتب، ذو خزانة عظيمة لم يكن في ملوك الاندلس من يفوقه في أدب ومعرفة . (٣)

لقد شغل الكتاب منزلة رفيعة عند الاندلسيين ، فكانوا يعدونه متنزهاً ممتعاً ، قال ابو عمر يوسف ابن عبد البر القرطبي (ت٤٦٣هـ) : انشدني احمد بن محمد بن احمد رحمه الله :

الذ مايطلب الفتى بعد التقى ... علم هناك يزينه طبله
ولكل طالب لذةٍ متنزه ... وألذُ نزهة عالمٍ كتابه

(١) الصلة ٣١٠٠/١ وانظر دراسة في مصادر الادب ٦٥
(٢) البيان المغرب ١٥٦/٣
(٣) نفخ الطيب ٣٨٠/٣

وسألني أن ازيد فيها بحضرته فقلت :

يسلي الكتاب هموم قارئه ويبين عنه إن قرا نصبه
نعم الجليس اذا خلوت به لامكره يخشى ولا شغبه (١)

وقد نشأت طبقة في المجتمع تعنى بنسخ الكتب وخطها ، وتتفنن في تجليدها وزخرفتها ، ولم يقتصر الامر على الرجال ، وانما تجاوز إلى النساء ، فقد ذكر المراكشي نقلاعن ابن فياض في تاريخه في أخبار قرطبة قال : «كان بالربض الشرقي من قرطبة مئة وسبعون أمرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي ، هذا مافي ناحية من نواحيها ، فكيف بجميع جهاتها » (٢) .

ومن ميادين التعليم ، دور العلماء انفسهم ، فقد جاء في تراجم عددمنهم أنهم كانوا يمارسون التعليم في بيوتهم ، من ذلك مااورده ابن بشكوال في ترجمة احمد بن سعيد بن كوثر الانصاري (ت٤٠٣هـ) : إنه كان يقيم في قلعة رباح ، ويقصده طلاب العلم من داخل الاندلس ومن المشرق كذلك في اشهر الشتاء : نوفمبر وديسمبر ويناير في مجلس مفروش بالبسط ووسائد الصوف فيلقي دروسه عليهم ، ثم يقدم لهم موائد بلحوم الخرفان والزيت العذب ، ويلبثون على حالهم هذه ثلاثة اشهر ، وكانوا نيفا على اربعين تلميذاً . (٣) وفي رواية بعض القصائد عن ابي عبد الله بن ابي الخصال (ت٥٤٠هـ) يثبت ابن خير الاشبيلي في فهرسته مكان القراءة فيقول : «قراءة مني عليها في منزله»(٤).

ومن طريف مايروى في مجـــــال ميادين التعليم ، أن طائفة من فقهاء طليطلة ونبهائهم ذهبوا سنة ٤٥١هـ في وفد لأمير طليطلة المأمون بن يحيى بن ذي النون للمعتمد لابنته للمظفر عبد الملك بن ابي عامر امير بلنسية ، فلما جلسوا فيها لاداء مهمتهم ، وجدوا أن الفرصة مواتية وثمينة ليسمعوا على ابي عمر يوسف

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢٤٩
(٢) المعجب ٣٧٢
(٣) الصلة ٣٧/١
(٤) فهرسة ابن خير الاشبيلي ٤٢٩

ابن عبد البر ، فسمع عليه من اعضاء الوفد ابو اسحاق ابراهيم بن احمد الصدفي وابو الحسن عبد الرحمن بن ابي بكر محمد الصدفي . (١)

واطرف من هذه الصورة في التعليم ، أن ابا عمر احمد بن فرج الجياني (ت٣٦٦هـ) صاحب كتاب الحدائق حين سجن في «سجن جيان» أقام في السجن اعواما سبعة او ازيد منها لم ينقطع عن العلم فكان «أهل الطلب يدخلون اليه في السجن ويقرؤون عليه اللغة وغيرها ». (٢)

مراحل التعليم واساليبه :

من خلال ماتقدم من حديث عن ميادين التعليم ومؤسساته يترجح لدي أنها كانت أربع مراحل هي على التوالي : المكتب او الكتاب ، والمسجد ، ومجلس العلم او الادب والمدرسة او الكلية ... وقد عرضت للثلاث الاول من خلال مؤسساتها ، واما مرحلة التعليم العالي ، فقد كانت أماكنها محدودة ، ذكر الدكتور علي عبد العظيم انه كان للطب اربع مدارس آهلة بالمدرسين والتلاميذ ، من جميع الملل والاجناس في قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية ، وقد كان هناك قول مأثور ينقشونه على معاهدهم هو : «إن العالم يقوم على اربعة امور : علم الحكماء ، ودعاء الصلحاء ، وشجاعة الشجعان » . (٣)

ومن دوائر التدريس التي تضمها جامعة قرطبة ، دائرة الفلك وأخرى للرياضيات والطب والعلوم الدينية والشرعية . ومن المراكز العلمية ، طليطلة والتي ظلت إلى مابعد سقوطها سنة ٤٧٨هـ ، بمدة طويلة ، بمحافظة على مقامها كمركز هام للدراسات الاسلامية . (٤)

وتجدر الاشارة إلى تعلم الغرب في كل ميدان من العلماء المسلمين إعتماداً على ماترجم من كتبهم منذ وقت مبكر حوالي القرن الخامس الهجري .. وقد كان شيوع التعليم بالعربية سبباً لاهمال اللاتينية والاغريقية ، واحياء اللغات الشعبية (٥)

(١) التكملة (مجريط) ٤٥١/٢

(٢) الصلة ٥/١ – ٦

(٣) تاريخ العرب – مطول ٦٦٩/٣

(٤) م.ن ٦٩٨/٣

(٥) اثر العرب في الحضارة الاوربية ٦٩

ومن الذين عرضوا للمناهج التي كانت تدرس في الاندلس للصبيان بشكل مفصل ، ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) في مقدمته خلال حديثه عن إختلاف الأمصار الإسلامية في تعليم القرآن يقول : «وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو (١) ، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم ، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب . ولا تختص عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة ، وقد شدا بعض الشيئ في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب ، وتعلق باذيال العلم على الجملة لو كان فيهما سند لتعليم العلوم لكنهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ، ولا يحصل بأيديهم إلا ماحصل من ذلك التعليم الاولي وفيه كفاية لمن أرشـده الله واستعداد اذا وجد المعلم . (٢)

وبذلك يختلف أهل الاندلس في تعليمهم عن أهل المغرب والمشرق ، فأما أهل المغرب فيقتصرون على تعليم القرآن لولدانهم ، ولايخلطون بحديث أوفقه أو شعر أو كلام العرب إلى أن ينقطع عن حفظ القرآن واتقانه . وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم خلافاً لطريقة أهل المغرب مع عناية خاصة بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشيبة ، ولكنهم لايخلطون بتعلم الخط ، وإنما يدرس الخط على آنفراده كما تتعلم سلك الصنائع ، ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان . (٣) ويرى ابن خلدون أثر هذا النمط من

---

(١) يعلق الدكتور علي عبد الواحد وافي (المحقق) فيقول : اي يعلمونهم الكتابة من حيث هي على الاطلاق لا رسم المصحف فقط ، واختلاف حملة القرآن فيه كما يفعل اهل المغرب.

(٢) مقدمة ابن خلدون ١٢٤٩/٤ – ١٢٤١

(٣) م . ن ٤ /١٢٤٢ .

التعليم في الأندلس عليهم ، بحيث أصبحوا أصحاب ملكة في اللسان العربي . وأهل خط وأدب بارع .. ثم يعرض لرأى ابي بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ) ويجد فيه غرابة ، فهو يرى تقديم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم لأن الجهل بها فساد باللغة ثم ينتقل منه إلى الحساب حتى يرى القوانين ومن الحساب إلى دروس القرآن وهكذا .. وابن العربي في منهجه لايختلف كثيراً عن منهج أهل الاندلس وإنما يؤخر تعليم كتاب الله إلى المرحلة الثانية ، ليكون الصبي أقدر على فهم مراد الله تعالى بكتابه . وعنده أنه من الغفلة أن نأخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره فيقرأ مالا يفهم .. كذلك ينهي عن خلط علمين في التعليم تيسيراً على الصبيان ..

ويتساءل الدكتور محمد رضوان الدايه عن الكتب التي كانت تدرس في المراحل الاولى ويتوقع أن تكون المختارات الشعرية المنتقاة من الشعر الجاهلي والاسلامي بخاصة ، لانها اقدر على فهم القرآن وغريب الحديث — والوصل بين المعاني فيها جملة ، ومن نصوص الترسيل نماذج من اليتيمة ومقامات بديع الزمان والحريري ، ونثر المعري ، وبعض نصوص اندلسية لابن حزم وابن شهيد وابن برد وابن زيدون وابي عبدالله بن ابي الخصال لما اشتهر عن هؤلاء واضرابهم من براعة وحذق وذيوع رسائل . (١)

وأما ماكان يدرس في المراحل التالية فيذكره لنا ابو بكر بن العربي ، منتقصاً من شأنها ، ساخراً من اصحابها يقول : «فإذا عقل الصبي — في الاندلس — سلكوا به أمثل طريقة — علموه كتاب الله ، فاذا حذقه نقلوه إلى الادب فاذا نهض منه حفظوه الموطأ ، فاذا لقنه نقلوه إلى المدونة ثم إلى وثائق ابن العطار ثم إلى احكام ابن سهل ثم يقال : فلان الطليطلي وفلان المخريطي وابن مغيث لااغاث يداه فيرجع القهقرى ، ولا يزال الى وراء ولولا ان الله تعالى من بطائفة تفرقت في ديار العلم وجاءت بلباب منه كالقاضي ابي الوليد الباجي و....

(١) تاريخ النقد الادبي في الاندلس ٥٩ .

لكان الدين قد ذهب ، ولكن تدارك الباري سبحانه بقدرته ضرر هؤلاء ينفع هؤلاء وتماسكت الحال قليلاً والحمد لله » . (١)

وهذه الكتب المقررة يأخذها الطالب على شيوخ مختصين بشكل حلقات في المساجد وتعطينا كتب برامج الشيوخ (٢) صورة لانتقال المرويات بين العلماء انفسهم .

وسنحاول أن نعطي صورة موجزة للأعراف والأساليب المتبعة في التعليم ، فقد كان الطالب يكابد ويبذل مبلغ طاقته في التعلم ، محتسباً ذلك لوجه الله تعالى ، فهم يقرؤون لان يعلموا لالأن يأخذوا جارياً ، فالعالم منهم بارع لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه .(٣) ومن الأمثلة الرائعة على مبدأ الإحتساب في التعليم والتأليف ماجاء في المصادر الأندلسية عن العالم اللغوي أبي غالب تمام بن غالب المعروف بـ«ابن التياني» (ت٤٣٦هـ) ألف كتاباً وسمع به حاكم مرسية الأندلسية الأمير أبو الجيش مجاهد العامري فارسل الى ابن التياني ألف دينار وكسوة ليزيد في ترجمة الكتاب عبارة «مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد» لكن التياني رد على الأمير مجاهد دنانيره والكسوة وقال : كتاب ألفته لله ولطلبة العلم أصرفه إلى أسم ملك ، هذا والله مالا يكون ابداً » فزاد التياني في عين مجاهد وعظم في صدور الناس . (٤)

ونجد أمثلة كثيرة على صبر طالب العلم والعلماء على طلب العلم ، فقد جاء

---

(١) الديباج المذهب ١٢١ . والمدونة لسحنون تضم آراء الامام مالك وتعتبر من اهم الاصول التي يقوم عليها المذهب المالكي .

(٢) من كتب برامج الشيوخ فهرسة ابن خير الاشبيلي (ت ٥٧٥هـ) وفهرسة شيوخ الرعيني الاشبيلي (ت ٦٦٦هـ) وتنظر اطروحة الدكتور ناطق صالح مطلوب للدكتوراه بجامعة عين شمس ١٩٧٨ وهي بعنوان «فهارس شيوخ العلماء في المغرب والاندلس »

(٣) نفح الطيب ١ /٢٢١ .

(٤) جذوة المقتبس ١٨٣، المغرب ١/١٦٦ . وينظر « حول التراث والحضارة» مجلة كلية الدراسات الاسلامية العدد (٥) ص٣٩٥ .

أن أبا عبد الله ابن محمد الحميدي (ت٤٨٨هـ) كان من إجتهاده ينسخ بالليل في الحر فكان يجلس في أجانه ماء يتبرد به » (١) . وقال أبو عمر بن عبد البر (ت٤٦٣هـ) في قول العلماء : «لا يستطاع العلم براحة الجسم » :

يامن يرى جمع المال والكتب ... خدعت والله ليس الجد كاللعب
ماإن ينال الفتى علماً ولا أدباً ... براحة النفس واللّذات والطرب
نعم ولا باكتساب المال نجمعه ... شتان بين اكتساب العلم والذهب(٢)

والعلم الحقيقي ليس بكثرة الكتب والقراطيس ، انما بقدر الافادة منهما ، لذلك لايعبأ ابن حزم الاندلسي بفعل المعتضد بن عباد حين أحرق كتبه ، وصادرها بعد أن اوغروا صدره عليه فيقول :

فان تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل إن انزل ويدفن في قبري
دعوني من احراق رقٍ وكاغدٍ وقولوا ... بعلم كي يرى الناس من يدري
والا فعودوا في المكاتب بدأة فكم ... دون ماتبغون لله من ستر (٣)

وكان طالب العلم يصحب استاذه مدة كلما زادت ، زاد انتفاعه به فقد ذكر ابن المغربي انه صحب ابن حزم سبعة اعوام وسمع منه جميع مصنفاته .(٤) وقد دعوا الى الافادة من الوقت بعدم تبديده ، خرج ابو عمر الطلمنكي يوماً على طلابه فقال : اقرؤوا واكثروا فاني لاأتجاوز هذا العام ، فقلنا له : «ولم يرحمك الله ؟ فقال : رأيت البارحة في منامي منشداً ينشدني :

اغتنموا البر بشيخ ثوى ... ترحمه السوقة والصّيد
قد ختم العمر بعيد مضى ... ليس له من بعده عيد (٥)

(١) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢١٩ ، نفح الطيب ٢ /١١٤ .
(٢) جامع بيان العلم ١/ ١١٠ .
(٣) الذخيرة ١/١ /١٤٣ – ١٤٤ .
(٤) تذكرة السامع ٢٢٢ .
(٥) الصلة ١/٤٥

قال : فتوفي في ذلك العام . كما حثوا على التعليم في الصغر، والامثلة كثيرة على العلماء الذين اخذوا العلم من صغرهم بالتعليم والدراسة .

ومن الاعراف المتبعة : ضرورة تحلي المدرس بالآداب والمظاهر الخاصة بالسلوك لخطر مركزه ، فعليه مثلا ان يراعي الوقار والسكينة في تعليمه ، وقالوا : «من تمام آلة العالم ان يكون مهيباً وقوراً بطيئ الالتفات قليل الاشارة لايصخب ولا يلعب ولا يجفو ولا يلغو » (١) واتصفوا بطيب الخلق في معاملة التلاميذ ، فقد جاء : ان ابا بكر مسلم بن احمد بن افلح النحوي (ت٤٣٣هـ) كان لتلاميذه كالاب الشفيق ، مجتهداً في تبصيرهم ، متلطفا في ذلك .... يقصر اللسان في وصف احواله » .. (٢) ومن الاشارات التربوية المبكرة مانبه اليه ابن عبدون التجيبي بشأن عدم الاكثار من الصبيان للمؤدب الواحد ، فان تعليمهم يكون على مالا ينبغي «فالتعليم صناعة تحتاج إلى معرفة ودربة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم » انه ادراك حصيف من ابن عبدون لمراعاة عدد الطلاب فيتفرغ لهم المؤدب ، ويشير كذلك الى أن اكثر المؤدبين جهال بصناعة التعليم حيث يقصرون همهم على تحفيظ القرآن، لان حفظ القرآن شيئ والتعليم شيئ آخر لايحكمه الا عالم به . (٣)

وقد ورد استحسان التفرغ من الاعمال والتخلي عنها لطلب العلم وتعلمه — ولدينا امثلة على علماء لم يقطعهم تحصيلهم عن اعمالهم التي تبلغوا بها، فابو الوليد الباجي (ت٤٧٤هـ) صاحب المؤلفات الكثيرة رحل إلى بغداد لطلب العلم وفيها آجر نفسه لحراسة درب ، ورجع منها بعد ثلاثة عشر عاماً بعلم جم حصلة مع الفقر والتعفف — وكان لما رجع الى أندلس يضرب ورق الذهب للغزل ويعقد الوثائق ،قال أصحابه : كان يخرج إلينا للإقراء وفي يده أثر المطرقة الى أن فشا علمه وهيئت الدنيا له » (٤) .

---

(١) جامع بيان العلم ١/١٤٦

(٢) الصلة ٢/ ٦٢٦ .

(٣) ثلاث رسائل في آداب الحسبة ٢٥ .

(٤) تذكرة الحفاظ ٤/ ١١٧٨ .

ولم يكن دور المرأة في التعليم ، أقل شأناً من دور الرجل — فقد نهضت المرأة الأندلسية باعباء المجتمع وشاركت في ميادينه — ولدينا أمثلة كثيرة على مشاركتها ، ويهمنا في هذا المقام المرأة العالمة والمتعلمة ، التي مارست التعليم ، فرشيدة الواعظة كانت تتجول في بلدان الأندلس تعظ النساء وتذكرهن وكان لها صيت وانصاف ..(١) وأما مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري — فقد كانت تعلم النساء الادب وتحتشم لدينها وفضلها (٢) . وقد قرأ أبو داود سليمان بن نجـاح — كتابي « الكامـــل » للمبرد و«النوادر » للقالي على مولاة ابي المطرف عبد الرحمن بن غلبون واخذ العروض عنها ، توفيت في حدود الخمسين والاربعمائة رحمها الله تعالى (٣) .

لم تخرج طرق تدريس العلوم على طرق المحدثين في الرواية ، وخاصة التي درست في المسجد . وهذه الطرق تمثل أساليب التعليم المتقدمة (بمراحله الاخيرة) وابرزها : «السماع والقراءة »

المراد بالسماع : ان يلقي الشيخ درسه فيستمع اليه الطلاب ، وهو ينقسم الى قسمين :

املاء او تحديث ، سواء من حفظ الشيوخ او القراءة في كتبهم ، ويقول السامع منهم عادة :حدثنا وأخبرنا وانبأنا ، وسمعت فلانا يقول ..(٤)

ومن أمثلة السماع ما رواه ابن الأبار : أنه كانت لابي العباس العذري (ت٤٧٨هـ) حلقة كبيرة في بلنسية «سمع »منه سنة ٤٦٥هـ ببلنسية أبو أحمد جعفر ابن جحاف المعافري (ت٤٨٨هـ) (٥) .وفي عام ٤٧٤هـ سمع ابو عبدالله عبد الرحمن بن جحاف المعافري من أبيه ابي عبد الرحمن (٦) .

(١) التكملة (مخطوط) القسم الثالث ورقة ١٥٥ .
(٢) الصلة ٢/ ٦٩٤ .
(٣) نفح الطيب ٤ /١٧١ .
(٤) الحياة العلمية في مدينة بلنسية ٣١٠ نقلا عن الالماع ٦٩ .
(٥) التكملة ١ /٢٣٩ .
(٦) التكملة (مجريط) ٢ /٥٥٥

وأما المراد بالقراءة ، فهي قراءة التلميذ على الشيخ حفظاً من قلبه او من كتاب ينظر فيه او قراءة غيره وهو يسمع (١) . اجتمع سماع وإقراء في مجلس واحد كما حصل لابي الحسن علي بن عائذ الطرطوشي (ت٤٩٥هـ). قرأ «صحيح مسلم» على العذري البلنسي سنة ٤٧٤هـ وبقراءته سمع الصدفي (٢)

ومن امثلة القراءة في عصر الطوائف ما رواه أبو عمر الطلمنكي قال : «دخلت مرسية فتشبث بي اهلها ليسمعوا عني غريب المصنف فقلت لهم: انظروا من يقرأ لكم وأمسك كتابي فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيدة، فقرأ علي من أوله الى آخره من حفظه فعجبت منه (٣) .

واما الاجازة فقد رأى احد الباحثين (٤) انها طريقة من طرق التعليم تختلف عن الطريقتين الآنفتين والمراد بها : «اذن الشيخ للطالب بالرواية عنه» وفيها شهادة تشهد بعلم المُجاز ، ولهاصور متعددة منها اجازة معين لمعين ، وأجازة بغير معين ، والاجازة العامة ..وصور أخرى وقد الف الاندلسيون فيها كتباً منها كتاب الوجازة في الاجازة للوليد العمري الاندلسي (ت٣٩٢هـ) (٥) وغيره ورأي باحث آخر (٦) :«ان الاجازة تمثل شهادة علمية او مهنية او ترخيصاً بتحصيل الطالب مادة معينة او اذنا له علم من العلوم ، ولكنها لم تكن درجة علمية تحدد مكانة علم من العلوم ، ومقدار اتقانه له وبراعته فيه ،مما تتكفل به الدرجات العلمية في عصرنا ، ومن هنا كانت الاجازة ترخيصاً او أذناً علمياً فقط وليس «درجة »علمية ولعلها اشبه ما تكون بشهادة «الليسانس» او «البكلوريوس » في وقتنا الحاضر .

ومن خلال النصوص المتوفرة بين ايدينا نجد أن الاجازة غالباً ما تقترن بكتاب او كتب يجاز الطالب به او بها فهي مقيدة بالشخص الذي يجاز... ويتفاوت

---

(١) الحياة العلمية ٣٢٢ .
(٢) الصلة ٢/٤٢٢
(٣) معجم البلدان ١٢/ ٢٣٣ .
(٤) الحياة العلمية في بلنسية ٣٣٥ .
(٥) م . ن ص ٣٣٦ هامش ٤ .
(٦) تاريخ الجامعات الاسلامية ٢٣٠ .

عالمان يجازان كتاباً واحداً في مرتبتهما العلمية ، بينما يستوى حملة الدرجة العلمية المحدودة «الليسانس ، اوالبكلوريوس » بالمستوى العلمي . ومن امثلتها في الاندلس: أن ابا القاسم خلف بن احمد البكري حصل على اجازة بتأليف ابي الحسين الشافعي سنة ٤٥٤هـ اثناء رحلته الى الشرق (١) .

كانت هناك القاب علمية تشابه الى حد ما الالقاب العلمية التي تطلق في عصرنا الحديث تستطيع ان ترتبها حسب الاهمية ،وهي (٢): «الامام » و«الحافظ» و« العلامة» و«الشيخ» و«الفقيه» و«المحدث» و«المقرىء» وآخرها « المعلم والمؤدب» .

واقترنت هذه الاسماء بمقومات أخرى تتصل بعلم العالم ومدى ظهوره في سلوكه اليومي ، فمكانة العالم ستنحط بدون تقوى واضحة في سلوكه (٣)، وهكذا فالالقاب العلمية أطلقها المجتمع والعلماء على بعضهم ، ولم تطلقها المؤسسات العلمية .

ويتباين العالمان اللذان يحملان لقباً واحداً في درجة العلم ، وهذا التفاوت يعرف من النعوت التي تلحق باللقب نفسه .

ولقب « الامام » يقابل لقب « دكتور » في يومنا هذا (٤) ، وقد اطلق على ابي محمد على ابن حزم (ت٤٥٦هـ) هذا اللقب ، وعلى ابي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي (ت٤٦٣هـ) وعلى ابي الوليد هشام بن احمد الوقشي (ت٤٨٩هـ) وغيرهم ، وقد يقيد اللقب بعلم واحد كما حصل لابي داود سليمان بن نجاح المقرىء (ت٤٩٦هـ) الذى عُد شيخ القراء و« امام الاقراء » (٥) ونجد بعض العلماء يطلق عليه اكثر من لقب علمي . فهو امام وحافظ وعلاّمة وشيخ (٦)

---

(١) الصلة ١ /١١١

(٢) لمزيد من التفصيل انظر الحياة العلمية ٣٥٧ – ٣٦٩ .

(٣) م . ن :٣٥٦ .

(٤) تاريخ الجامعات الاسلامية ٢٣١ .ويجري المؤلف موازنة بين اللقبين يترجح له بعدها ان لقب «الامام» ابعد غاية واوسع مدلولا من لقب « دكتور » .

(٥) غاية النهاية ١ /٣١٦ .

(٦) حصل ذلك لابي عمرو عثمان بن سعيد الداني ، انظر غاية النهاية ١ /٥٠٣ .

دور الشعر في الحث على التعليم :

على الرغم من ان الاندلس ، لم تعرف الامية والجهل في القرن الخامس الهجرى ، كما تقدم القول مما يكون معه الحث على التعلم ضرورياً ، على الرغم من ذلك فان شعراء الاندلس عرضوا للعلم وقيمته في اشعارهم ، وحثوا على طلبة وسنعرض لجانب من اشعارهم في هذا الباب فابوعبيد الله الحميدي يجد في العلم حياة للانسان في حياته ، وذكرا طيباً بعد وفاته يقول :

من لم يكن للعلم عند فَنائه أَرج فان بقاءه كفنائه
بالعلم يحيا المرء طول حياته فاذا انقضى أحياه حسن ثنائه (١)

وهي ابيات تشبه ابياتاً لابن السيد البطليوسي يقول فيها :

أخو العلم حي خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماشٍ على الثرى يظن من الاحياء وهو عديم (٢)

ويحث الحميدي في ابيات اخرى على المحاججة بالنصوص العلمية ، والتماس الادلة من الحديث الشريف ويفخر ابن عبد البر — امام الاندلس في الشريعة ، والمحدث الجليل وصاحب المؤلفات — بالعلوم وكيف انها تبلغ بصاحبها القُنى والقُلل ، وان مقام العالم عظيم بين الناس :

إذا فاخرت فافخر بالعلومِ ودعْ ماكان من عَظمٍ رَميم
فكم امسيت مطَّرحاً بجهل وعلمي حلّ بي بين النجوم
وكائن من وزير سار نحوى فلازمني ملازمة الغَريم
وكم أقبلّت متئداً مهاباً فَقام إليَّ من ملّك عظيم
وركبٍ سارَ من شرق وغرب بذكري مثل عرف في نسيم (٣)

وتوقير العلماء واجلالهم مطرد في بيئة الاندلس يقول المقري : « والعالم عندهم

---

(١) نفح الطيب ٤ /٣٣٧ .
(٢) ابن السيد البطليوسي — مجلة المورد : ق ٤ص ١١١ م ٦ ع ١ .
(٣) المغرب ٢/٤٠٧

معظم من الخاصة والعامة ، يشار اليه ويحال عليه ، وينبه قدره ، وذكره عند الناس ، ويكرم في جوارٍ او ابتياع حاجة وما اشبه ذلك » (١) وحين يؤبن ابن حمديس ابن اخته بعد وفاته يقول :

ولكان في درس العلوم وحفظها بين الأفاضل مبدأ الاعـداد (٢)

فالعالم في الاندلس ذو مكانة رفيعة حياً وميتاً .

والدّعوة للتعلم وقرَتْ في نفوس الأندلسيين فانطلق أبو مروان الجزيرى يصدح بها من أعماق المطبّق بعد أنْ سجنه المنصور بن ابي عامر يوجهها إلى بنيه يحثهم على الالتزام والتحلي بالعلم .. قال الحميدي الذى استحسنها « لااعلم لاحد مثلها في معناها » وفيها يبين مقام العالم في المجتمع ويؤكد على اقترانه بالعمل ومنها :

واعلمْ بأنّ العلم أرفعُ رتبة وأجلُ مكتسب وأسنَـى مفخر
فاسلكْ سبيلَ المقتنيين له تَسُدْ إنّ السيادة تقتنـى بالدّفتـر
تسمو إلي ذي العلم أبصارُ الورى وتغضّ عن ذي الجهل لابل تزدري
وبِضُمّر الأقلام يَبلغ أهلها ماليسَ يَبلغ بالعِتـاق الضّمّـر
والعلم ليسَ بنافع أربابـه مالم يفد عملاً وحسن تبصرِ (٣)

ويجد ابن عصفور في العلماء جنوداً أوفياء يذودون عنه ، ويهتدي الناس بهم

ذووالعلم في الدّنيا نجوم هداية اذا غار نجم لاح بعـد جديد
بهـم عز دين الله طرّاً وهم له معاقل من اعدائـه وجنود (٤)

---

(١) نفح الطيب ١/٢٢٠ وتنظر وصية ابي الوليد الباجي لولديه وفيها يقول : والعلم سبيل لايفضي بصاحبه الا إلى السعادة ولايقصر به عن درجة الرفعة والكرامة ... فاجتهدا في طلبه واستعذبا التعب في حفظه والسهر في درسه والنصب الطويل في جمعه ...حتى يقول : وانظرا اي حالة من احوال طبقات الناس تختاران .. هل تريان احداً ارفع حالا من العلماء وافضل منزله من الفقهاء ...» مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية م ١ ع ٣ ص ٣٤ مقال وصية الشيخ ابي الوليد الباجي لولديه ، جودة عبد الرحمن هلال .

(٢) ديوان ابن حمديس رقم ١٢٢ .

(٣) جذوة المقتبس ٢٨١ .

(٤) جامع بيان العلم ٢/١٥٥

وقد دعوا إلى مخالطة العلماء وسؤالهم ، وبذلك يأمر القائل :

عليك باهل العلم فارغب اليهم يفيدوك علماً كي تكون عليماً
ويحسب كل الناس انك منهم اذا كنت في أهل الرشاد مقيماً
فكل قرين بالمقارن مقتدي وقد قال ، هذا القائلون قديماً(١)

وادرك شاعر الطبيعة ابن خفاجة . أهمية العلم . وانه آخذ بيد صاحبه إلى المقام الرفيع فقال يحمل على طلب العلم والتحلي به :

عش طالباً أو عليماً فالجهل عينُ المحطَّة
ولا يصدُّنك يأسٌ عن نيل أشرف خطة
فمبدأ النار سقط واول الخط نقطة (٢)

وعلى هذا المنوال نسج أبو بكر قاسم بن مروان الوراق في قصيدة طويلة يذكر قوماً من فقهاء قرطبة سلفوا رحمهم الله :

والعلم زين وتشريف لصاحبه أتت الينا بذا الأنباءُ والكتب
والعلم يرفع أقواماً بلا حسب فكيف من كان ذا علم له حسب
فاطلب بعلمك وجه الله محتسباً فما سوى العلم فهو اللهو واللعب

وقد تقدم القول في منهج أهل الاندلس وتقديمهم القرآن الكريم وقوانين العربية ، وذلك لمقامهما في تقويم الالسنة ، وفي هذا يقول ابن عبد البر معارضاً أبا حاطب ومؤكداً أهمية الفقه وعلوم الدين :

واذا طلبت من العلوم أجلَّها فاجلُّها منها مقيم الالسن
العلمُ يرفع كل بيت هين والفقه يجمل باللبيب الدين
والحرُّ يكرمُ بالوقارِ وبالنُّهى والمرءُ تحقرهُ اذا لم يرزنِ
فاذا طلبتَ من العلوم أجلها فأجلها عند التقي المؤمن
علمُ الديانة وهو أرفعها لدى كلِّ امريء متيقظٍ متدين
هذا الصحيح ولا مقالةُ جاهلٍ فأجلها منهاَ مقيمُ الاندلس (٤)

---

(١) م. ن ١/١١٠ .
(٢) ديوان ابن خفاجة رقم ٢٩٨ .
(٣) جامع بيان العلم ١/٦٧
(٤) م. ن ١/٦٧ .

واما ابن حزم فقد حث على طلب علوم الحديث فقال :

أنائمٌ أنتَ عن كتْب الحديث وما أتى عن المصطفى فيها من الدين
لمسلمٍ والبخاريِّ اللذان هما شداّ عرى الدين في نقلٍ وتبيين
أولى باجرٍ وتعظيم ومحمدةٍ من كل قول اتى من رأي سَحنونِ (١)

وانشد ابو القاسم أحمد بن عمر بن عصفور لنفسه شعره هذا ابن عبد البر « وهو أحسن ما قيل في معناه » :

مع العلم فاسلك حيثما سلك العلم وعنه فكاشفْ كل من عنده فهم
ففيه جلاء للقلوب من العَمى وعونٌ على الدِّين الذي أمره حتم
فأني رأيتُ الجَهَل يُزرِى بأهله وذو العِلم في الأقوام يرفعه العلم
يعد كبير القوم وهو صَغيرهم وينفذ منه فيهمُ القول والحكم

ويسخر من الأشيب الجاهل ويحذره من عاقبة الامور :

وهل أبصرتْ عَيناك أقبحَ منظراً من أشيبَ لا علمٌ لديه ولا حكم
هي السوءة السَّوداء فاحذر شماتها فأولها خـــزي وآخـــرها ذمٌ
فخالط رواةالعلم واصحب خيارهم بصحبتهم زينٌ وخلطهم غنم
ولا تعدون عينـاك عنهم فإنهم نجومُ اذا ماغاب نجم بدا نجم
فوالله لولا العلم ماانضح الهدى ولالاح في غيب الامور لنا رسم(٢)

واما السيادة بالجهل فهي فساد الدين والدنيا ولذلك يقول ابن عبد البر :

حب الرئاسة داء يحلِق الدِّينا ويجعل الحب حـربا للمحبينـا
من ساد بالجهل او قبل الرسوخ فلا تراه الا عـدواً للمحقينـــا
يبغي ويحسد قوماً وهـو دونهم ضاهى بذلك أعـداء النبيينـا (٣)

وقد كان زاهد الاندلس الكبير الفقية ابو اسحاق الالبيري من العاملين على اشاعة العلم الحاثين على ايفائه نصيبه من العناية فيخاطب ابنه ابا بكر

---

(١) تاريخ الادب الاندلس – عصر سيادة قرطبة ٣٨٣ .
(٢) جامع بيان العلم ٤٨/١ .
(٣) م . ن ١٧٤/١ .

بقصيدة طويلة – وقبله خاطب ابو مروان الجزيرى أبناءه – باسلوب الوعظ والارشاد ، يجلو فيها قيمة العلم في الدنيا والآخرة ويؤكد على ضرورة اقترانة بالتقوى باسلوب رقيق مؤثر فيقول :

ابا بكر دعوتك لو أجبتا إلى ماغيه حظك إن عقلتا
إلى علم تكون به إماما مطاعا إن نهيت وإن أمرتا
وتجلو مابعينك من عشاها وتهديك السبيل اذا ضللتا
وتحمل منه في ناديك تاجا ويكسوك الجمال اذا اغتربتا
ينالك نفعه مادمت حيا ويبقى ذخره لك إن ذهبتا

هو العضب المهند ليسَ ينبو تصيب به مقاتل من ضربتا
وكنز لاتخاف عليه لصاً خفيف الحمل يوجد حيث كنتا
يزيد بكثرة الانفاق منه وينقص إنْ به كفا شددتا
فلو قد ذقت من حلواه طعماً لآثرت التعلم واجتهدتا

ويزجره عن الشغل عنه بمفاتن الدنيا فيقول :

ولم يشغلك عنه هوى مطاع ولا دنيا بزخرفها فتنتا
ولا ألهاك عنه أنيق روض ولا خدر بربربه كلفتا
فقوت الروح ارواح المعاني وليس بأن طعمت وإن شربتا
فواظبه وخذ بالجد فيه فان أعطاكه الله أخذتا
فلا تأنى سؤال الله عنه بتوبيخ : علمت فهل عملتا؟
فرأس العلم تقوى الله حقاً وليس بان يقال : لقد رأستا
اذا مالم يفدك العلم خيراً فخير منه أنْ لو قد جهلتا
وإنْ التماك فهملك في مهاو فليتك ثم ليتك مافهمتا
ستجني من ثمار العجز جهلا وتصغر في العيون اذا كبرتا
وتفقد إن جهلت وانت باق وتوجد إن علمت وقد فقدتا

وتذكر قولتي لك بعد حين وتغبطها إذا عنها شغلتا

ويوازن بين الغني والعالم فترجح لديه كفة العالم :

ولا تحفل بمالك والـه عنه فليس النال الا ما علمتا
وليس لجاهل في الناس معنى ولو ملك العراق له تأتا
سينطق عنك علمك في ندى ويكتب عنك يوماً لم إن كتبتا
وما يغنيك تشييد المباني اذا بالجهل نفسك قد هدمتا
جعلت المال فوق العلم جهلا لعمرك في القضية ما عدلتا
وبينهما بنص الوحي بون ستعلمه اذا «طه» قرأتا(١)
لئن رفع الغني لواء مال لانت لواء علمك قد رفعتا
وإنْ جلس الغنيُّ على الحشايا لأنت على الكواكب قد جلستا
وان ركب الجياد مسومات لأنت مناهج التقوى ركبتا
وليس يضرك الاقتار شيئاً اذا ما انت ربك قد عرفتا (٢)

وهكذا مضينا مع التعليم في الاندلس في القرن الخامس الهجري ، بتحديد أهم ميادينه ومؤسساته وإعطاء صورة عن مراحله وأعرافه المتبعة ، ومشاركة الشعر في حث افراد المجتمع الاندلسي على التعليم .

* * * *

(١) قال البلوى (الف باء) ١٣/١ اشارة إلى قوله تعالى « وقل رب زدني علما » طه ١١٤ الديوان : ٢٣ .

(٢) ديوان ابي اسحاق الالبيري ٢٠ — ٢٣ .

المصادر والمراجع

١. اثر الغرب في الحضارة الاوربية ، عباس محمود العقاد، ط٤ دار المعارف القاهرة ١٩٦٥ م.

٢. البيئة الاندلسية واثرها في الشعر ، عصر ملوك الطوائف ، . سعد اسماعيل شلبي ط النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٧٦ .

٣. البيان الغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب ، ابن عذاري المراكشي
جـ١، ٢ تحقيق كولان وليفي بروفنسال باريس ١٩٤٨ م
جـ٣ تحقيق بروفنسال باريس ١٩٢٩ م
جـ٤ تحقيق د. احسان عباس بيروت ١٩٦٧ م

٤. تاريخ الادب الاندلسي — عصر سيادة قرطبة ، . احسان عباس ط٢ دار الثقافة بيروت ١٩٦٨م

٥. تاريخ افتتاح الاندلس ، ابو بكر محمد بن القوطية (ت٣٦٧هـ) تحقيق عبدالله انيس الطباع بيروت ١٩٥٧ م

٦. تاريخ التربية الاسلامية ، د. احمد شلبي ، اطروحة دكتوراه من جامعة كمبردج ، دار الكشاف بيروت ١٩٥١ م.

٧. تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ، محمد عبد الرحيم غنيمة ، دار الطباعة المغربية تطوان ١٩٥٣ م.

٨. تاريخ العرب — مطول ، د.فيليب حتى وآخرون ط دار الكشاف بيروت ١٩٥١ م.

٩ — تاريخ النقد الادبي في الاندلس ، د.محمد رضوان الداية ، دار الانوار بيروت ١٩٦٨ م.

١٠. تذكرة الحفاظ ، الحافظ الذهبي (٧٤٨هـ) جـ١—٤ دائرة المعارف العثمانية — حيدر اباد ١٩٥٦ م

١١. تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، ابو اسحاق بن جماعة الكناني (ت٧٣٣هـ) ط دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد ١٣٥٣ هـ

١٢. التعليم في رأي القابس د. احمد فؤاد الاهواني لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٥ م.
١٣. التكملة لكتاب الصلة جـ١ — ٢ ، ابن الابار (ت٦٥٩هـ) ط العطار ١٩٥٥ م ١٩٦٨.
١٤. جامع بيان العلم وفضله جـ١ — ٢ ابو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي (ت٤٦٣هـ(تحقيق عبد الرحمن عثمان المكتبة السلفية المدينه.
١٥. جذوة المقنيس ، ابو عبدالله محمد الحميدي (ت٤٨٨هـ) ط الدار المصرية للتأليف القاهرة ١٩٦٦ م
١٦. حضارة العرب غوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر . القاهرة ١٩٦٤م
١٧. حول التراث والحضارة ، د.عبد الرحمن الحجي ،مجلة كلية الدراسات الاسلامية العدد ٥ بغداد ١٩٧٣ م
١٨ — الحياة العلمية في مدينة بلنسية الاسلامية كريم عجيل حسين، رسالة ماجستير من جامعة بغداد مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٦ .
١٩. دراسة في مصادر الادب د. الطاهر احمد مكي ط ٤ دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ .م
٢٠. الديباج الذهب في معرفة علماء الذهب ، ابن فرحون المالكي (ت٧٩٩هـ) ط القاهرة ١٣٥٦هـ .
٢١. ديوان ابي اسحاق الالبيري (ت٤٦٠هـ) تحقيق د. محمد رضوان الداية طمؤسسة الرسالة ١٩٧٦ م
٢٢. ديوان ابن حمديس الصقلي (ت٥٢٧هـ) تحقيق د. احسان عباس دار صادر .بيروت ١٩٦٠ م
٢٣. ديوان ابن خفاجةالاندلسي تحقيق د. السيد مصطفى غازي ط١ المعارف الاسكندرية ١٩٦٠ م
٢٤. ديوان ابن زيدون ورسائله ، تحقيق د. علي عبد العظيم ، مكتبة نهضة مصر . القاهرة ١٩٥٧ م

٢٥. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) لجنة التأليف والترجمة والنشر قاجا ١ طجامعة فؤاد الأول القاهرة ١٩٤٢ .
٢٦. شمس العرب تسطع على الغرب ،زيغرد هونكه ،ترجمة كمال دسوقي وفاروق بيضون ط٢ المكتب التجاري بيروت ١٩٦٩ م.
٢٧. الصله ،ابن بشكوال(ت٥٧٨هـ)جا١—٢ طالدار المصرية للتأليف) القاهرة١٩٥٥
٢٨. طبقات النحويين واللغويين ، ابو بكر الزبيدي الاندلسي (ت٣٧٩هـ) تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم طالقاهرة ١٩٥٤ م .
٢٩. غاية النهاية في طبقات القراء،ابن الجزري (ت٨٣٣هـ) تحقيق ج . برجستراسر ط الخانجي ١٩٣٢ م
٣٠. مجاهد العامري ، قائد الاسطول العربي في غربي البحر المتوسط في القرن الخامس الهجري ، كلياليا سارتللى تشركوا ط لجنة البيان العربي القاهرة ١٩٦١ م .
٣١. المدخل ، ابو عبدالله محمد بن الحاج العبدري ط—٤ ط مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٩٦٠ م .
٣٢. مدنية العرب في الاندلس . جوزيف ماك كيب ، ترجمة وتقي الدين الهلالي ط العاني بغداد ١٩٥٠ م
٣٣. المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، تحقيق محمد سعيد العريان طالمجلس الاعلى للشئون الاسلامية ،القاهرة ١٩٦٣م
٣٤. معجم الادباء . ياقوت الحموي جا١ — ٢٠ دار المستشرق بيروت ب.ت
٣٥. المغرب في حلى المغرب ، ستة من بني سعيد آخرهم ، على بن موسى (ت٦٧٢هـ) جا١— ٢ تحقيق د.شوقي ضيف ط دار المعارف . القاهرة ١٩٦٤ م.
٣٦. مقدمة ابن خلدون جا١ — ٤ ، عبد الرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ) تحقيق د.علي عبد الواحد وافي ط١القاهرة ١٩٦٥ م
٣٧. نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب المقرى التلمساني (ت١٠٤١هـ) تحقيق د. احسان عباس ط١دار صادر .بيروت ١٩٦٨